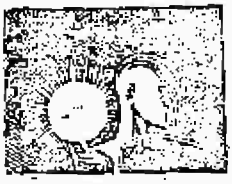

اتجاه العلم

للأستاذ إميل توفيق

يرجع حب المرء للمعرفة الى دافع مزدوج — فالمرء منا قد يتقصى معرفة موضوع ما لانه يغرم به أو يميل إليه — أو قد يتشوق إلى تحليله والتعرف على جميع عناصره لانه يرغب أن يسيطر على هذا الموضوع وأن تصبح له سيادة عليه . فالدافع الاول يقود إلى المعرفة التأملية ، والدافع الثاني يؤدي الى المعرفة العملية أو التطبيقية . ولقد كان العلم منذ عهد سقراط ، وأفلاطون ، وارسطاطاليس منحصراً في دائرة تأملية ، وباطراد العلم وتقدمه وتحسن أسلوبه التجريبي انتقل العلم إلى الدائرة التطبيقية وأصبح الدافع السائد للتفكير الإنساني هو دافع القوة في المعرفة ، وأخذ الدافع التأملي يتنحى وتضيق دائرته في الفكر الانساني .

أما دافع القوة فقد تبلور اليوم في متجهين أساسيين هما المتجه الصناعي وأسلوب الحكم يؤيدهما اتجاهان فلسفيان هما البراجماسية Pragmatism والفلسفة العملية Industrialism. وتدور كل فلسفة منهما بصفة عامة حول الحقيقة القائلة إن الأفكار التي تختص بموضوع ما إنما هي أفكار حقة طالما أنها تؤدي الى نتائج عملية للفرد أو المجتمع .

لكن للمعرفة شكلاً آخر غير شكلها التطبيقي وهو الشكل الذي ينتمي إلى بعض العواطف والمشاعر الانسانية . فالمتصوف والشاعر والمتأمل الحالم ، كل واحد من هؤلاء عاشق من عشاق المعرفة ، وإنما يعشقها لمتعته الجمالية ، ولغذائه الروحي ، ويتقصاها

لنشاطه العقلي — ولهذه المعرفة قيمتها رغم أنها قد تبدو بغير أثر مادي فعّال . إنها مؤثرة في أعماق الوجدان وفي ارتفاع قيمة النفس وفي تنظيم مراحي الحياة وغاياتها الروحية. إن في كل لون من ألوان الميل أو الحب رغبة للمعرفة تدور حول ما تغرم به أو ما تميل إليه لا من أجل السيطرة ولكن من أجل التأمل والإمعان . وحينما يثير فينا الموضوع خيالاً أو متعة أو شعوراً ذهنياً أو عاطفياً فنحن نريد أن نستطلع أسراره بتلك الحاسة الجمالية لأن المعرفة تضفي على الموضوع ألواناً جديدة من الحب كما أنها تعكس أضواء رائقة تنوعه وتثيره أمام أبصارنا وتحرك حسنا له في أشكال متعددة . ومثال ذلك حب الجنس ، أو حب الفن ، أو حب الطبيعة . وقد تصل المعرفة بطريق الميل إلى حدّ التصوف . حقيقة يوجد دافع للسيادة ولكن المثير الرئيسي لهذا الشكل من المعرفة ، هو الميل الوجداني ، كما أنه يتغيا غاية المتعة والحب .

* * *

كانت هذه النظرة هي التي تميزت بها نشأة العلم كما تميز بها روّاده الأولون من أمثال فيثاغورس ، وأرسطاليس ، وجاليليو ، ومن إليهم . لقد اجتذب الكون أبصارهم وسحرت مفاتنه ألبابهم فتأملوا أحداثه وظواهره مأخوذين مشدوهين .

وقد قام علم الفلك على استجلاء أسرار النجوم والكواكب والتطلع الى استكناه ألغاز السماء تطلع المحب الولهان .

ولكن التقدم العلمي ، وازدهار تطبيقاته وانتشار تأثيره وفعله المحسوس في البيئة وفي المجتمع — كل ذلك أدّى إلى أن تفقد هذه النظرة التأملية قيمتها - وأصبحت المعرفة أداة طيعة للقوّة لا للمتعة أو الهيام . ولم يعد عاشق الطبيعة يجد ما يجده المسيطر بقوّة العلم من جزاء مادّي في الحياة ، وإذا الفكر العلمي يفقد على مرّ السنين ذلك الجانب الإنساني الرفيع الذي يربط الذهن بموضوعات المعرفة بصلة الميل والحب الصادقين . وإذا الأصوات والألوان — والأضواء والظلال — والأشكال والتراكيب — تفقد محاسنها السحرية ومفاتنها الرائعة في نظر الباحث أو العالم — وإذا بالذهن التجريبي أشبه بالآلة التي تشرح هيكلاً عظميًّا لا صلة بينهما من ميل أو شعور .

إن بين الفنّان وموضوع فنه . أو بين المثّال وتمثاله حبًّا ووطاً هما سرّ السعادة الداخلية التي تجعله يرتفع فوق المطامع الدنيوية ، ليستمتع بعناصر المغامرة في الفن والانتاج ، وحسبه هذه المتعة جزاء ووفاء . أما محبة العلم في العصر الحديث فقد جعلت العالم لا يرتبط بأي رباط وجداني بموضوعات المعرفة التي يتناولها ذهنه ، ومن أجل ذلك طبع العلم مجتمعه بطابع القسوة والقوة المادّية والجمود العاطفي وعدم التعاطف بين العقول والقلوب . وهي محبة لا تنتمي الى العلم الصادق الذي يرفق بين الحب والقوة .

فالظاهرة التي نراها تطبع الإنسانية اليوم — في تيارها المتطرف الذي ينبع من العلم ظاهرة مبنية على القوة وحدها فقد أصبحت القوة غاية في حدّ ذاتها . والذي يزداد قوة يسعى للتزود منها وفي غمرة النشوة والزهو ينسى المرء نفسه وحاجاته الروحية ولا يقف متأملاً لينصت الى صوت قلبه ، وإلى آمال نفسه ، ولا إلى آلام البشرية من حوله . لقد امتدّت هذه الظاهرة حتى أصبحت القوّة في المدنية الزائفة إلهاً يعبده الناس ، وأصبحت قيم المعنويات تسير في آخر موكب القيم الإنسانية .

* * *

إن العلم أكبر عون للإنسان ، وأعظم مؤثر في حياته بشرط أن يبقى على المثل العليا التي تتأصل في الوجدان ، وأن يدعم الغايات الإنسانية التي تكمن في الشعور وفي مرامي الفن وغاياته ، وأن يؤيد الولاء في أية صورة من الصور الروحية أو العقلية وأن يرفع قيمة النفس بهذه المعرفة التأملية التي ينبغي أن تستوعب جهد الإنسان ومغامرته . ذلك أن العلم إذا استطاع أن يهدم — فلا يبني ، وإذا استطاع أن يزعزع — فلا يقيم ، وإذا استطاع أن يحلل — فلا ينظم — فهو علم لا قيمة له . إنما العلم تؤتى ثماره الشهية إذا استطاع الإنسان به أن يوفق بين العقل والشعور ، ويوثق بين التأمل العاطفي والبحث العلمي ، وأن يؤلف بين المعرفة والحكمة ، وبين الادراك وحاسة الجمال .

المترجم : The Scientific Out book — Bertrand Russel